"سيميائية عناوين النصوص الأدبية – قراءة تطبيقية"

الدكتور فهد سالم خليل الراشد
باحث لغوي – دولة الكويت
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
إدارة الثقافة

بلغة سهلة ووسيطة يتساءل كاتب صحافي من بيروت قائلا : " ما هي السيميائية؟ لماذا ندرسها؟ ما هي مفاهيمها ومذاهبها وأهم نظريات علمائها؟ ما علاقتها بسائر العلوم الإنسانية؟ وما هي مجالات تطبيقها؟ ثم يرد قائلا على التساؤلات التي طرحها قائلا : " تلك بعض الأسئلة التي يحاول كتاب (أسس السيميائية) الصادر عن المنظمة العربية للترجمة؛ لدانيال تشاندلر، وترجمة: د. طلال وهبة، الإجابة عنها.."

وقبل أن نعرض الإجابة عن تلك التساؤلات نحاول أن نقرب الصورة للقارئ أكثر من حيث الفروق بين السيميائية والسيمولوجيا، فـ " السيميائية هي علم الإشارات الدالة مهما كان نوعها وأصلها أو هي العلم الذي يدرس بنية العلامات وعلائقها في هذا الكون، ويدرس توزيعها ووظائفها الداخلية والخارجية " " إن مصطلح السيميائية معطى ثقافي أمريكي يحيل على مفاهيم فلسفية شاملة، ويستعمل للدلالة على العلامات غير اللغوية. أما مصطلح السيمولوجيا فهو معطى ثقافي أوروبي، ويستعمل للدلالة على العلامات اللغوية " .

" السيميائية ترجمة المصطلح الأجنبي sémioties وتعني علم الإشارات، والإشارة هي كل ما ينوب عن شيء آخر ويكون حاملا معنى: الكلمات والصور والأصوات والأشياء ... كلها إشارات، أو يمكن أن تكون إشارات إذا حملت معنى " . يقول الأستاذ الدكتور / عبد الملك مرتاض:" والحق أن الحديث عن السيميائيات هو حديث عن الثقافة الإنسانية في تعدد مظاهرها وظواهرها؛ ذلك بأن الإنسان تعامل مع السّمة منذ الأزل، وسخرها لأغراضه التعبيرية في الأفراح والأتراح، والطقوس والعبادات. وكثيرا ما تتخذ لها صفة الإشارة والصوت واللون والحركة فتستغني عن اصطناع اللغة لترقى بالتعبير إلى مستواه الإنساني

فيغتدي مفهوماً دون الحاجة إلى استعمال اللغة التي تختلف من أمة إلى أمة " .

ونعود مرة أخرى إلى كاتب المقال الصحافي حيث يقول : " من الطريف أن المؤلف يورد قولا لأحد النقاد يتصف بالفكاهة والسخرية وهو أن السيميائية تخبرنا عن أمور نعرفها ولكن بلغة لن نفهمها أبدا. والواقع أن مواضيعها مستمدة من الحياة، مما حولنا، ما يحيط بنا ونستخدمه ونتلقاه، وهي ككل علم حديث العهد لا يزال يبحث عن مجالاته ومقوماته وحدوده، تتعدد فيه النظريات وتكثر المصطلحات وتختلف دلالاتها من باحث إلى آخر... ولكن مهما اختلفت النظريات وصعبت الإحاطة بها وصعب اختيار مذهب دون الآخر فهي براهين على أهميتها واتساع مجالاتها وأهمية المواضيع التي تطرحها، ذلك أننا نعيش في عالم من الإرشادات. فنحن لا ندرك الأمور إدراكا مباشرا، بل من خلال الإشارات التي هي وسائط بيننا وبين العالم. أهم هذه الإشارات، كما سنرى، هي الإشارات اللغوية، يقول بيرس: نحن لا نفكر إلا بواسطة الإشارات، فدرس الإشارات وسيلة ضرورية لفهم العالم الذي نعيش فيه. والمواضيع التي تطرحها السيميائية جوهرية شغلت ولا تزال تشغل المفكرين على مر العصور: ما هو الواقع؟ ما هو المعنى؟ هل هو جوهر كائن مستقل عنا أم إننا نكونه نحن؟ وهل هو ثابت أم متغير؟ ما العلاقة بين الكلمة وما تدل عليه؟ ... هكذا نجد أن السيميائية ترتبط ارتباطا وثيقا بعلم اللغة العام" .

هب أننا كنا نتحاور في موضوع ما فقلت لك لنستخدم شعرة الدهاء، لا شك أنك سوف تستحضر في ذهنك درسا في التاريخ مذ كنت طالبا والمعلم يشرح لك مقولة خليفة المؤمنين معاوية بن أبي سفيان " بيني وبين الناس شعرة إن شدوا أرخيت وإن أرخوا شددت " ، كما أنك سوف تتخيل صورة الخليفة بلباسه من خلال ما ترى في المسلسلات والأفلام التاريخية وتتخيل الشعرة مجرة في غير موضع المقولة.

مثال آخر " صناجة العرب " لقب للشاعر الجاهلي الأعشى وقد شكل سمة للشاعر الذي يجمع ما بين الشعر والعزف على آلة موسيقية، فبمجرد أن تسمع صناجة العرب تستحضر الشاعر الأعشى بلباس غير لباس الخليفة معاوية، وقد تدخل الأفلام والمسلسلات التاريخية طرفا رئيسا في هذا الاستحضار، وفي تخيل البيئة والهيئة والملابس والآلة التي يعزف عليها،

وقد تعمل مقارنة ذهنية بين هذه الآلة وآلة العود أو القيثارة مثلا.

وكذلك مقولة " صراحة امرأة العزيز " سوف تستحضر قوله تعالى : " ... قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين " (يوسف: 51) وتتخيل امرأة العزيز في المجلس وهي تعترف وتبرئ سيدنا يوسف، وسوف تجد في نفسك نشوة وفرحا لتبرئة سيدنا يوسف.

وكذلك في قوله تعالى : " ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه .. " (يوسف: 24)، سوف تستحضر صورة الصراع بين الخير والشر، وهذا يتم شرحه بواسطة المربع السيميائي، والشيخ محمد متولي الشعراوي – رحمة الله عليه – يرى أن الفعل (هم) من الأفعال التي تحمل الإيجاب والسلب مثل الفعل (رغب) ، وأرى أن الفعل هم هو فعل مساعد على رغبة ما ، فهي همت لتحقيق رغبة الإرادة، والإرادة هنا لا تعني الفاحشة، ولكنها عندما همت به أرادت منه أن يتقبلها ويستلطفها، وسيدنا يوسف عليه السلام، هم لتحقيق رغبة الرفض، وبرهان الرب هنا هو الاطمئنان لمصيره ومستقبله القادم وكأنه في هذه اللحظة قد استشرف مستقبله بالنصر من عند الله عز وجل.

والقرآن تكثر به السيميائية فلا مجال لبسطها كلها، ولكني أفتح الباب على مصراعيه في هذا الجانب، الذي يفتح شهية المشتغلين في علوم السيميائية.

مدخـــــل:

ما من شك أن عناوين النصوص الأدبية ما هي إلا مرآة عاكسة وراصدة لروح المرحلة التي يتناولها كاتب النص الأدبي بفنونه المتعددة، والتي تحمل إسقاطات متنوعة على أحداثها ورموزها.

ولأن النص الأدبي كما يراه البعض هو " حيز يختزل مجموعة أفكار أو مساحة تستقطب ضوءا مسلطا على فكرة معينة تنتظم أقطابها ورموزها ضمن بناء من الكلمات والجمل المكتوبة أو المطبوعة أو التي تبثها الشاشة، فإن هذا الخيار يسوقنا إلى إدراك أهمية القراءة التي تعنى بفك الرموز لتكشف عن روح النص وتمضي في معرفة أبعاده "

ولعل الرموز والإشارات والأصوات والرسومات أكثر وقعا على القارئ أو السامع أو المشاهد،من الشرح. وهي تسهم في تفعيل إحساساته، وتحريك وجدانياته، ودغدغة مشاعره، وتشنيف أذنيه تجاه الحدث. وهي " غموض في التعبير والعناية بتصوير الجهات المبهمة من النفس، والغوص وراء الأحلام وعوالم ما خلّف الوعي والعناية بالتحليل النفسي" .

وبما أن رأس النص هو عنوانه؛ فمن الضرورة بمكان معرفة سيميائية هذا العنوان، وإلى ماذا يرمي، وما هي النوازع النفسية التي على ضوئها تم اختياره، " إن العناوين ذات وظائف رمزية مشفرة بنظام علاماتي دال على عالم من الإحالات، وتحديد تلك الوظائف يسهم ولا شك في فهم دلائل النص حتى إن كان غامضا ينقصه الترابط ، والانسجام بين عناصر الاتساق، ولهذا فإن أول درجة يطؤها السيميائي في سلم النص هي استقراؤه واستنطاقه للعنوان في بنيته السطحية والعميقة " . " تعتبر العلاقة الأولى (عنوان – نص) المدركة عبر هذا التدرج الرسالة الأولى التي يسعى الكاتب إلى تبليغها للقارئ بهدف إثارة فضوله وتحريضه على قراءة النص" . و " من حق العنوان أن يعدّ مدخلا طبيعيا متوقعا لقراءة المنجز الأدبي سواء كان قصة أو قصيدة أو مسرحية " .

يتناول هذا البحث عدة نماذج لعناوين بعض النصوص الأدبية منها المسرحية والسينمائية وبعض القصص ودواوين الشعر:

المسرح:

* المسرحية الكويتية (عتيج الصوف ولا جديد البريسم) اعتبرت المخرجة الكويتية / فتحية الحداد: " أن عنوان المسرحية هو التزام من المؤلف لعقد ضمني بينه وبين الجمهور، وأنه – العنوان – بمثابة الدعوة التي تؤثر في قرار الفرد وذهابه إلى المسرح " ، ، وقد أصابت المخرجة الكويتية فتحية الحداد كبد الحقيقة برؤيتها هذه؛ وذلك من خلال اطلاعنا على بعض الصحف اليومية فبمجرد أن ترى عنواناً مميّزاً يرغمك على قراءة المقال، وقد يكون هناك مقال ذا مضمون جيد إلا أن كاتبه قد أخفق في اختيار العنوان المناسب له؛ فبالتالي صرف القارئ عن قراءة مقاله، كما أن فتحية لفتت نظري لمصطلح (العقد الضمني) بين الكاتب والمتلقي من خلال العنوان، وطرفا العقد هما الكاتب والمتلقي؛ فالكاتب اشترط على نفسه بهذا العنوان أنه سيقدم عملا جيداً مميّزاً يليق بعقلية المشاهد ويحترم ذوقه، وليس كما نرى في كثير من الأعمال الفنية يستخف الكاتب بعقولنا كمشاهدين لهذا العمل، والطرف الثاني في الاتفاق هو المتلقي فهو من سيحكم على هذا العمل بعد مشاهدته وهو من سيقيم هذا العمل، ولا نغفل أن الفن أو المسرحي في النهاية هو فن أدبي يخضع للذوق العام، والذوق العام يتفاوت من مشاهد إلى آخر. وتتساءل المخرجة فتحية:" هل لصيغة العنوان تأثير في تركيب النص، وتحديد البداية والوسط والنهاية ؟ وهل لهذا التركيب أثر في ترتيب المشاهد ومعالجتها وموضوع المسرحية ؟ . يرى البعض بأنه " لا بد من إقامة صلة من نمط سيميائية وصفية بين العنوان وما هو عنوان له – لا بد من تصور العنوان كجزء من النص (الذي يمثل عنوان له) " .

ونعود مع فتحية حول عنوان المسرحية الذي رأت فيه مرآة عاكسة لمجتمع الانفتاح والثراء المفاجئ، الذي هز المجتمع الكويتي، فكانت تلك الفترة شبيهة بفترة المراهقة الاجتماعية إن صح قولي عنها، إلى أن بدأت بوادر النضج والوعي تظهر على المجتمع الكويتي مع بداية سنة 2000، فماذا قالت فتحية ؟ " عتيج الصوف ولا جيدي البريسم– لم تعمل فقط على رسم ملامح بعض التغييرات الاجتماعية في الكويت ما بعد اكتشاف النفط، ولكنها – كنص – ساهمت أيضا بتعريفنا باتجاه الحركة المسرحية في الكويت في نهاية الستينيات وبداية

السبعينيات "، مع ملاحظة أن المسرحية عرضت في 19 مارس 1967 . وتتساءل الكاتبة فتحية : (هل لصيغة العنوان تأثير في تركيب النص، وتحديد البداية والوسط والنهاية؟ وهل لهذا التركيب أثر في ترتيب المشاهد ومعالجتها وموضوع المسرحية) ص 87.

ثم أمضت قدما في بحث هذه الأسئلة بدراسة عنوان المسرحية وعلاقته مع النص وبطريقتها الدقيقة تناولت عنوان المسرحية (عتيج الصوف ولا جديد البريسم) وبدا واضحا تقنيتها الكتابية، ومهارتها في مستويات اللغة المستخدمة للإجابة عن هذه الأسئلة وبالمختصر المفيد انظر ماذا تقول :" في عبارة عتيج الصوف ولا جديد البريسم " عنصران أساسيان يقسمان العنوان : " عتيج الصوف، على طرف وعلى الطرف المقابل أو النقيض " جديد البريسم "، لتفصل " لا " النافية بين الاثنين ، وبالحصيلة فهناك ثلاثة عناصر أساسية: الصوف الحرير وأداة التمييز بينهما، وبمقابل هذه العناصر مع فصول المسرحية الثلاثة نرى أنه بالإمكان اعتبار العدد3 عاملا مشتركا " .

وتجدر الإشارة أن لفظة (عتيج) هي في الأصل (عتيق)، وقلبت القاف جيما في اللهجة الكويتية، مثل (جدامك) وتعني (قدامك) أي أمامك ورمز العتيق هنا يرمز للأصالة، ولعلي أجد نفسي مجيبا عن الاثنين معا القديم وهو التقليدي الكلاسيكي، والجديد وهو المعاصر أو ما يسمى بالحداثة – لاسيما – في الأدب مثل القالب الشعري وقصيدة النثر ومقومات القصة ونظرية التجريب ... لذا سأنطلق من مقولة " الجديد يولد من رحم القديم "، فعلى المتشبثين بالقديم ألا يرفضوا كل ما هو جديد يثري اللغة العربية ويدفعها نحو اللغات الحيّة – لاسيما – وأن اللغة العربية محاربة بشدة ويضمر لها شر مبرم لخنقها ومن ثم اندثارها، وعلى المنادين بالجديد ألا ينبذوا القديم؛ فالقديم هو الأساس الذي نبني عليه نظريات جديدة، نحن بحاجة إضافة على هذا الأساس وليس هدم الأساس بمعول القديم.

* المسرحية العراقية (حظر تجوال) تأليف وإخراج ممند هادي – قدمتها الفرقة الوطنية للتمثيل – بغداد. . " اثنان من قاع المجتمع على قارعة طريق (رائد محسن – صبّاغ الأحذية وسمر قحطان – غاسل السيارات " في مدينة ملغومة بالموت وحظر التجوال والمتفجرات ... في هذا المكان الصغير المحسوب ببضعة أمتار والمسوّر بحظر التجوال، وبالإضاءة الخافتة أو

المركزة في محيط من الظلمة، وبلغة يومية بسيطة مألوفة اتصف بها الحوار، استطاع مهند هادي أن يوصل إلينا الإحساس بالحصار والقهر والخطر وصعوبة الحصول على رغيف العيش الذي يعيشه الإنسان العراقي في مستنقع الموت "، إذن لم يستطع الحظر أن يكمم الأفواه، ولم يتمكن هذا الحظر اللعين أن يقمع الحريات، ها هما أبسط شخصين من الوظائف الدنيا كسرا هذا الحظر وجالا وخاضا في الكلام وعبّرا عن واقع أليم، والمخرج العراقي مهند هادي حينما أطلق على عمله حظر تجوال كأنه يتحدى الاحتلال الأميركي قائلا إذا حظرتم المكان فليس بمقدوركم أن تحظروا الحناجر، وهذا يجرنا إلى مقولة " العنوان ليس ملكية لكنه جزء من العمل " .

وكلمة (حظر) هي منع يتبعه عقاب، وكلمة (تجوال) لها مفهوم عام؛ فالتجوال قد يكون إما ماشيا أو راكبا، وهذا هو المقصود في البيان الرسمي أو اللافتة المنصوبة في الطرقات، ولكن المخرج العراقي مهند هادي، ذهب إلى أبعد من ذلك ؛ فالتجوال في التعبير والخواطر والأفكار والإحساسات وهذا ما كان عصيا على الاحتلال الأمريكي أن يقيم الحظر عليه.

* المسرحية السورية(كأس سقراط الأخير) مونودراما قدمها المسرح القومي (سورية) تأليف موفقمسعود وإخراج وتمثيل زيناتي قدسية.

ليس على المسرح سوى سقراط في ملابسه التاريخية .. يعيش اللحظات الأخيرة قبل تجرعه السم، يتحرك في فضاء تاريخي يمثل أثينا، يتقدم وصوته التسجيلي يشتم روما وطغيانها، فهل المقصود بهذا المزج الزماني والمكاني الإشارة إلى القطب الطاغي الذي يتحكم بالعالم اليوم؟ وهل الأعمدة الموزعة على خشبة المسرح إغريقية أم رومانية؟ وهل الشبك الحديدي في عمق المسرح كإشارة شرطية للسجن، هو رمز للسجون التي يقبع خلفها الفكر والمفكرون في عصرنا، عصر الحرية والديمقراطية المزعومتين؟

على أرضية بيضاء وجدران سوداء، ومع الإضاءة المركزة يبرز التضاد، حتى إذا انسكب الدم من الكأس الكبيرة وانساح على الأرضية البيضاء برزت بقعة دم كبيرة، إنها دم سقراط الذي لا ينتسب في هذا العرض إلى زمان أو مكان معينين، وإنما هو سقراط الرمز، سقراط

الإنسان المقهور الذي لا يزال يقبع خلف السجون، وينساح دمه كل يوم في المعتقلات وساحات الموت وحرائق المدن والقتل المجاني " .

وإذا كان سقراط هنا " هو الرمز، سقراط الإنسان المقهور ... " إلخ. كما ذكر الكاتب؛ فإن الكأس هي وعاء الأفكار التي يتبناها الإنسان ويشربها حتى الثمالة؛ فتسري في عروقه، وتغذي قلبه، وتصنع عقله، وكم من شاعر وأديب وعالم قتل بسبب شربه من كأس أقواله ومبادئه وأفكاره، والأخير هنا تحتمل معنيين الأول سلبا لأنها – أي الأفكار – قد تموت معه من خلال كأسه الأخيرة، وإيجابا لأنها – أي الأفكار – قد تخلد بموته وتصبح سمة.

* المسرحية الفلسطينية (الجدار) " فرقة مسرح وسيناتيك الفلسطينية، تأليف الفرقة، إخراج جورج إبراهيم " تتابع تصوير معاناة الإنسان الفلسطيني في ظل الاحتلال والحصار. لا شيء على خشبة المسرح سوى الإنسان الفلسطيني والجدار الذي ينتصب عاليا حتى يكاد يلامس سقف المسرح .. المسرح عار تماما إلا من الإنسان والوحش الإسمنتي الأصم الذي يلخص قسوة ووحشية العدو، إنه جدار الفصل الذي التهم الأراضي وعزل القرى والسكان."

ولكن هل نقف بلفظة (الجدار) عند هذا الحد؛ لماذا لانعكس النظرية فيصبح الجدار يمثل الإرادة الفلسطينية الصلبة، والجدار هو صناعة فلسطينية فرضتها على العدو الصهيوني خوفا ورعبا من قوة إيمان الفلسطينيين وتمسكهم بأرضهم، فحينما يلجأ العدو الصهيوني إلى بناء الجدار هذا يعني أنه لم ولن يستطيع الانصهار والاندماج في المجتمع الفلسطيني فهو جسم غريب ومرفوض جملة وتفصيلا.

* مسرحية موليير (كاره البشر) " لا يستثني موليير في مسرحيته هذه أيا من قطبيها من سهامه، وبإمكان الاستدلال إلى قطبي المسرحية من عنونها قبل الخوض في تفاصيلها، فالعنوان بحد ذاته يقدم طرفي المعادلة: الطرف الأول هم عامة الناس –أوالبشر كما ورد في العنوان .. والطرف الثاني شخص يكن الكره لهؤلاء الناس، وعند الخوض في التفاصيل تتغير بعض المفاهيم التي يولدها الانطباع الأول الذي يعطيه العنوان؛ فمفهوم الكره الذي تقدمه المسرحية إنما يعني فيما يعنيه عدم القدرة على الانسجام مع المحيط الذي يحمل أخلاقيات تقوم

في أساسها على التزلف والتملق والخداع " .

السينما:

* فيلم جزائري (يا سمينة) إن أوّل ما تميّز به مخرجا فيلم " يا سمينة " (جمال شندرلي ومحمد الخضر حامينة) هو اختيار الاسم فـ " ياسمينة " مأخوذ من نبتة الياسمين وهو لفظ معرب من الفارسية. والياسمين نوع من أنواع الرياحين ويطلق عليه بالفارسية " جاسمين " فحينما اختارا هذا الاسم " ياسمينة " تلك الوردة البيضاء، فهما بذلك يرمزان إلى السلام والمحبة ، والنقاء والطهارة، كما أن وردة الياسمين ذات رائحة عبقة فواحة،يعطرون بها الأسرة والمضاجع قبل النوم والمفارش والنمارق والزرابي قبل الجلوس عليها، وهي عادة دأب عليها أهل المغرب عامة.

اختار المخرجان (جمال شندرلي ومحمد الخضر حامينة) لبطولة فيلمهما الوثائقي الروائي (طفلة) ولعل السؤالين اللذين نطرحهما على المخرجين هما: لماذا استخدما الأطفال؟ ولماذا طفلة وليس طفلا؟ الأطفال براعم المستقبل، وهم الأمل المنشود، وهم من يعوّل عليهم في بناء جزائر حديثة. الأطفال الجزائريون هم أكثر الأطفال تضرراً و تعرضاً لحرب مخلّة بشرف الحرب، وحرب إبادة من القوات الفرنسية الغازية.

أطفال لم يغترفوا ذنباً ناموا آمنين مطمئنين بأحضان ذويهم، استيقظوا فلم يجدوا أمّاً ولا أباً ولا بيتاً ولا لعبة ولا قلماً ولا كراسة ولا مدرسة ولا ملابس تسترهم، لم يجدوا من يأويهم ومن يكسوهم.

إن وحشيّة المستعمر الفرنسي لم ترحم سنهم الغض، ولم تأبه بأحلامهم الوردية، ولم تنشغل بأكلهم وشربهم ... غزوتم الجزائر، وذبحتم رجالها ونسائها، وشردتم أطفالها، وماذا بعد؟! ماذا جنيتم؟ أهي بطولة تريدون تدوينها في سجل التاريخ، أم هي شجاعة تودون من يقف ويصفق لدمويتكم؟ ألم تسألوا أنفسكم - أيها الفرنسيون – ماذا جنيتم ؟ وماذا تريدون؟

أما السؤال الثاني الذي نطرحه على المخرجين الجزائريين الرائعين (جمال شندرلي ومحمد الخضرحامينة): لماذا طفلة وليس طفلا ؟ في كل الأحول الطفلة دائما وأبدا تنشد الأمن والأمان، والدفء والسكينة والاستقرار، الطفلة منذ الصغر تحمل قدراً من الأمومة

والتحنان، إنها غريزة الرّب المنان، وضعها في هذه المخلوقة الرقيقة (ألا رفقا بالقواريق) ويقول المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام (أوصيكم بالنساء خيرا).

الطفلة هي رمز الأم بمعناها الحقيقي (وفاء، عطاء لا محدود، أخلاص ممدود، صبر، أناة، وهن ...)، وهي الدولة والعروبة والأمة الإسلامية بمعناها المجازي. الطفلة حاضنة ولاّدة، الطفلة رقيقة شفافة، الطفلة لينة هينة، الطفلة امتداد الماضي، وقلب الحاضر، وإشراقة المستقبل، جرَحَها وخدَشَها ومزّقَ صورتها البريئة، ذلك المارد المستكبر الاستعمار الفرنسي اللعين.

* فيلم جزائري (ريح الأوراس) عنوان الفيلم يتكون من كلمتين، الكلمة الأولى " ريح " والريح جمعها " رياح " لها رمزية خاصة – لاسيما – في القرآن الكريم؛ فقد ذكرها الله عزّ وجلّ في أكثر من سورة وفي عدة آيات، وعاقب بها أكثر من قوم. من هذه الآيات قوله تعالى: " وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية " (الحاقة: 6)، وقال تعالى:" وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم * ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم " (الذاريات: 41و42، وقال تعالى:" إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر* تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر " (القمر: 19و20)، وقال تعالى:" فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون " (فصلت: 16)، وتقول السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها:"كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصف الريح قال: " اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به ".

والمخرج الجزائري حينما استخدم " الريح " لم يكن استخدامه لها في معناها الحقيقي، بل في معناها المجازي فـ: الريح " عند المخرج الجزائري هي ريح الغضب والثورة، هي صوت مدويّ يخرق مجالات الصوت، يزعزع كيان المستعمر؛ فلا يدري من أين تأتيه الضربات، نهاره عسير وليله جحيم، إنها رياح الحقّ، إنها رياح الذود عن الأرض والعرض، إنها رياح الكرامة.

أما الكلمة الثانية من العنوان " الأوراس ". والأوراس " هي جبال عالية القمم من ولاية باتنة، و ولاية خنشلة، و ولاية أم البواقي، و ولاية تبسة شمال شرق الجزائر. وأعلى قمّة بها

هي جبل شيليا التي تقع في ولاية خنشلة بارتفاع يقدر بـ 2328. تليها قمة جبل محمل بـ " ثنية العابد " بـ ولاية باتنة التي يصل علوها إلى 2321 م . وجبال عالي الناس جنوب خنشلة. كما تصنف جبال الأوراس من بين أكبر سلاسل الجبال في شمال أفريقيا.

* فيلم جزائري (نهلة) هذا الفيلم الذي أخرجه المخرج الجزائري / فاروق بلوفة، مليء بالدلالات الثقافية، ويحظى بقدر كبير من الرموز المكانية والزمانية، والشخصيات العربية اللامعة والبارزة، فيلم تعددت فيه السيميائيات هذا الاستغناء عن اللغة عوضته المخرجة الكويتية / فتحية الحداد، بـ (اللغة علامة اجتماعية)، وهي بذلك قد ضربت لنا مثالا حيّا لمقابلة شخصية مع رمز من رموز فنّ التمثيل الكويتي الفنان القدير / جاسم النبهان قائلة: " أذكر أنني في مقابلة مع المسرحي الكويتي جاسم النبهان تحدثنا عن مسرحية (مدير فاشل) وتطرقنا إلى الكتابة والنقوش المرسومة على حائط في منزل (أم خندريس)، مثلته الراحلة / مريم الغضبان، الفنان النبهان لفت نظري إلى أن الرسم والكتابة على الحائط في هذه الحالة هو إشارة إلى أن بيت أم خندريس يدخله الأطفال ولا يبالون فيرسمون على الحائط ولا يهتمون بشأن صاحبة البيت؛ فالكتابة على الحوائط موجودة في الكويت ولكنها محصورة في الغالب على حوائط الشوارع وخارج البيوت. إذن فالرسم هنا أو فنّ الرسم عبر عن حالة اجتماعية " . وسوف أناقش هذه الرسومات والكتابة على الحائط في موقعها من فيلم نهلة عند التحليل.

ويشدّك المخرج الجزائري فاروق بلوفة بمهارة فائقة عندما يستخدم الصمت وعدم التعليق في كثير من الأحايين وفي عديد المواقف في شخصية بطل الفيلم الصحافي الجزائري، ترى الكاتبة المسرحية الكويتية فتحية الحداد " إن المراحل التي يمر بها الممثل تكوين الصورة المتكاملة عن الشخصية تستند إلى في الأساس قراءة دقيقة، وقراءة فاحصة لحوار الشخصية وتمعن في ما يعكسه هذا الحوار من انفعالات، هذه الانفعالات قد تولد لحظات صمت لا يشير إليها المؤلف ولا تظهر في النص، وقراءة لحظات الصمت هي جزء من عملية تلق تعنى بمتابعة ما بين السطر الواحد، فالصمت أو السكون قد يمثل جزئية مهمة من العرض المسرحي وهي جزئية قد لا تظهر في النص، وإن ظهرت فإن طبيعة هذا الصمت وإيقاع

ذاك السكون يحدده المخرج من ناحية والممثل من ناحية أخرى " .

أشارت الكاتبة هنا إلى أمرين اثنين: الأول الصمت ورأت أنه جزء من عملية تلق تعنى بمتابعة ما بين السطور، والآخر من الذي يحدد الصمت، ورأت أن المخرج والممثل هما المعنيان بتحديد مواضع الصمت، أتفق معها في الأمر الأول، مدللا على ذلك بفقرة جميلة للدكتور رشيد بن مالك في قراءة سيميائية لكتاب كليلة ودمنة لعبد الله بن المقفع" حيث يقول " من هذا المنطلق يمكن أن يدرك القارئ بأن الامتناع عن الكلام في مقام يقتضي الكلام هو كلام في حد ذاته و (استراتيجية) سخرها بيدبا لجس نبض الملك أولا، وحمله، من دون أن يشعر، على قبول الحوار ثانيا، ومن ثم جره إلى تنازلات كان يستحيل أن يقوم بها قبل عزمه على الذهاب إليه ورفع التحدي بمواجهته ". ونختلف معها في الأمر الآخر في تحديد الصمت التي رأت أن المخرج والممثل هما المعنيان بتحديد مواضع الصمت؛ وأرى – كما ذكرت في مقدمة هذه الورقة العلمية - أن كتابة المسرحية مهارة لا يتقنها إلا الكاتب المسرحي، فهو المعني بدقيقها قبل عظيمها، وعليه أن يصف الأشياء بدقة متناهية، وأن يضع أدواته المسرحية في محلها بإتقان ، وعليه أن يلتف حول الشخوص مراعيا كل شخصية وما تحمله من أبعاد فكرية عقائدية اجتماعية سياسية اقتصادية، وكل ذلك لا بد أن يكتب على الورق؛ فإن كان المشهد يتطلب صمت الممثل يذكر ذلك كاتب المسرحية قائلا : " هنا يجب أن يسكت الممثل قليلا مع الإيحاء بالرفض أو القبول وغيرهما – مثلا – فالصمت له عدة دلالات منها الرضا والقبول ومنها الرفض ومنها الامتناع عن إبداء رأي أو وجهة نظر إذا وجد بأن مستوى الحوار لا يرقى إلى مفهومه، وقديما قالوا " إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب " وإذا وجد من يحاوره حواره عقيما فالصمت لغة – نعم – ولكن على الكاتب أن يراعي مواقع الصمت ويذكرها في كتابة المسرحية مما علت قدرة الممثل حسا.

قصص قصيرة:

وقعت تحت يدي ثلاثة كتيبات يحتوي كل واحد منها على مجموعة قصصية والمؤلف واحد هو الأديب السوري الأستاذ الدكتور / أحمد جاسم الحسين، وقد حملت العناوين الآتية (همهات ذاكرة، حب فراتي أو الزعفرانية، خبيصة) .

ومع أول مجموعة قصصية للأديب السوري بعنوان " همهمات ذاكرة " وهي عبارة عن قصص قصيرة جدا أستطيع أن أطلق عليها نكات قصصية أو ومضة (فلاش) وإن صح قولي عليها فهي " حكاوي "، تحتوي على عدة معان كبيرة في حيّز ضيق جدا جدا جدا جاذبة ومشوقة، عالج بها عدة قضايا دولية واجتماعية بأسلوب رشيق لا يمل البتة، وإن كنا نأخذ في بعض الأحايين التناقض في طرح محاور القصص.

أول قصة قصيرة جدا بعنوان " دعوة " يصور لنا الدكتور أحمد الحسين المجتمع الذكوري المحب للسلطة والتسلط ذات النظرة الضيقة لأهمية الأنثى في بناء المجتمع والأسرة؛ وكأنها لم تخلق إلا لطاعة وخدمة الرجل وإشباع غريزة الفحولة عنده، يقول " دعا الديك الدجاجات إلى المائدة التي أعدتها صاحبة البيت، فصهن بانتظام، أمرهن ألا يأكلن إلا بعد أن يشبع! اقتربت منه صاحبة المنزل والسكين في يدها لم يأبه بها، عندما حاولت ذبحه ذكرها أنها أنثى".

أما في قصة " كريم " يحاول القاص السوري وبكل شجاعة استقاها من سوريا الحرة العنيدة على مطالب الأعداء، فها هي نبرة العربي الشجاع تصدع حين أراد العدو الغربي أن ينال منا ويقدم كل دولة عربية تعارضه كبش فداء ولقمة سائغة للصهاينة، وكل دولة عربية لا تطأطئ الرأس للأفعى الأميركية فهي دولة مارقة، يقول " احتار الراعي أي خروف سيختار لضيوفه " المهيمن "، فالضعيفة لا تكفي ! والسمينة " العاقلة " خسارة! لم يطل تفكيره فالكبش كان قد ضربه بقرونه من الخلف فوجدها فرصة لإكرام الضيوف " المهيمن".

وينتقل بنا الناقد السوري / أحمد جاسم، من الكل إلى الجزء بحركة رشيقة ليعبر عن المجتمع ذي السلطة المستبدة التي تمارس القمع على أصحاب الأقلام الحرة والأفكار النيرة، ويتجه ظني أن الخطأ الشائع في هذه الأيام: هو الخلط بين المثقف والمتعلم، وأذهب بذلك إلى فرق رئيس وجوهري، وهو أن المتعلم فهمه وإدراكه مقصور على علم واحد لا يتجاوزه ومن الممكن أن يبدع فيه ولكن يظل فاقدا لتطور عجلة الزمن. أما المثقف قد يكون إنسانا لم ينهل من العلم وقراءة الكتب الشيء الكثير ولكنه مارس الحياة، وخالط المجتمع، وأصبح قلبه النابض، يتألم لألمه ويفرح لفرحه، وعندما يصارع الفرد معترك الحياة يكون أكثر نضجا وحنكة لما قد يعتريه من المجتمع، يقول الدكتور عبد السلام الشاذلي في كتابه (شخصية المثقف) :

المثقف من حيث هو إنسان شديد التأثير في البيئة الاجتماعية المحيطة به، كما أنه في الوقت نفسه إنسان شديد التأثير في وسطه الاجتماعي، وهو في محيط عالمه وعصره وذلك لما له من قوى فكرية خاصة ومواهب روحية ونفسية متميزة " لذا أرى أن المثقف نتاج مرحلة ذات ظروف معينة، قد تكون سلبية، وقد تكون إيجابية على أنه لا يمثل ولا يتمثل برموز هذه المرحلة يتجلى ذلك في قصة " طماع " يقول " سأل الضابط التركي ابن المعتز العباسي : أصحيح أنك تطمع في الخلافة؟ سيدي أنا شاعر ومثقف! قاطعه: طز – سيدي أنا لا أحب السلطة! وشعري يشهد بذلك! هز الضابط رأسه، وقال خذوه...! " .

ولعله لم يبتعد كثيرا عن مفهوم تخلف بعض الأنظمة التي تمارس المركزية والهيمنة والاستعباد؛ وربما لا مس جرح المثقف العربي والمسلم الذي يعاني من التبعية الفكرية والانقياد والإذعان لموجات الطبول والدفوف، وللشعارات المزيفة التي يتحصن بها صغار القوم من أجل تحقيق مكاسب شخصية، ترى ذلك واضحا في قصة " غباء " يقول " سأل راعي القطيع أغنامه: من ربكم ؟ أشارت الأغنام إلى السماء! ضحك كثيرا وهو يقص رؤوسها.. يبدو أنك لا تستحقين الحياة أيتها القطعان الغبية ".

ونرى تكميم الأفواه وخنق حرية التعبير في قصة " هجرة " يقول (أمي .. أمي .. لماذا تهاجر السنونو كل عام؟ ابتسمت: لأنها تملك وطنا آخر؟: لماذا لا نملك ...؟ لطمتني تلفت إلى الشبابيك هل هي مغلقة ".

ثم يعود الأديب السوري من الكل إلى الجزء بمهارة لا نظير لها تنم عن قدرة وتمكن؛ فأفكاره حاضرة، والألفاظ طوع يديه يوظفها كيفما شاء، لقد تطرق إلى آفة اجتماعية نموذج للرجل الانتهازي الذي يصل على أكتاف ثروة زوجته دونما حب لهذا العقد المقدس؛ ففي قصة " مزاح " يقول الأديب السوري " فقد صبره فصاح: سأطلقك ! أجابت بهدوء استفزازي: سأسحب الوكالة والـ .. ! ابتسم لها وقبل رأسها: هل تصدقين يا حبيبتي أنني من الممكن أن أطلقك .. أنا أمزح " .

وبمعالجة درامية ذات نكهة كوميدية يتألق بها الدكتور / أحمد الحسن حيث يتطرق إلى طمس الإبداع ووأد الكفاءات؛ ففي قصة " فكرة " يقول " خطرت على بال المذيع فكرة

طريفة فأراد أن يحولها ريبورتاجا، أخذ الموافقات! فتوجه إلى مجموعة من المواطنين بسؤال واحد: ما معنى الضمير ؟ أشار محب إلى قلبه! وشرطي إلى جيبه ويده! وبعضهم إلى حذائه.. أحد المسؤولين أشار إلى ... قطع البث وسرت في اليوم التالي إشاعات متنوعة حول مصير المذيع " .

ولو انتقلنا إلى المجموعة القصصية الثانية للأديب السوري أحمد جاسم الحسين الذي عنون لها عنوان أحد قصص المجموعة وهو (حب فراتي أو الزعفرانية) هذه المجموعة غلب على طابعا الدراما القصصية ولكنها لم تخل من الكتابة الساخرة.

من منطلق مقولة " السياسة لا تجد بها صداقة دائمة ولا يوجد بها عداء دائم " يجسد لنا القص السوري هذا المفهوم في قصة " بجانب حديقة الجاحظ تماما " حيث يقول " وبما أن الأمر يحتاج للوحدة والتعاون ففي اليوم التالي يكون هو مع أخرى وهي مع آخر " ص 10.

ويتطرق للفساد الإداري الذي استشرى في المجتمعات العربية نستشف ذلك في قصة" حمام وأعشاش وذكريات " يقول " حسين ابن أم حسين؛ رموا سرته بالجامع صار شيخا... ! علي ابن أم صالح رموا سرته بالمدرسة صار أستاذا ... ! توفيق رموا سرته بالمخفر صار شرطيا وعنده ثلاث سيارات وأربعة بيوت".

كما نجد في قصة " عصا الطرافة " صورة لمجتمع متخلف يؤمن بالخرافات والخزعبلات ولا يقيم وزنا لأصحاب العلم والمعرفة حيث يقول " بصراحة ما كنت أصدق حكاية الهامة، لو ما أني البارحة شفتها بعيني! ران صمت مفاجئ على الحاضرين ومطوا أعينهم مستغربين فهم يسمعون بالهامة منذ قرون لكن أحدا لم يرها من قبل! بصراحة يا جماعة كانت كبيرة وشكلها مرعب.. ولسانها طويل .. ومخالبها حادة .. منقارها مثل السيف .. وجهها أسود مثل السعالي! وذيلها أطول من ذيل الحنافيش .. ! سألتني : الثأر يا عبد الجبار ! أجبتها قاتل أخي في السجن ! صاحت : من أولاد عمه.. من عشيرته يا حمار! ابتسم بعض الحضور وسرت همهمات.. والله ما هان علي أنا الذي قضيت عمري بالدراسة تقول لي الهامة: حمار".

كما نلمس نظرة التشاؤم لدى القاص السوري في قصة " بابا نويل " حيث يقول " لوحة ضوئية مكتوب عليها وداعا يا عام الهم 95 ! أهلا بعام الألم 96 ! " .

وفي لوحة فنية رائعة يحث القاص السوري على أهمية التسلح بالعلم والمعرفة والسعي الحثيث للحصول على أعلى الشهادات العلمية، وبالوقت ذاته لم يغفل دور الحافز والتشجيع في تحقيق ذلك يقول في قصة " يوم رحل الياسمين " " أمي قالت: لا تنم وحيدا " السعلاة " لن تأتيك إذا حصلت على " الجامعة " ! فرحت ! : و " الحنفيش " متى أقدر عليه يا أمي ؟ : عندما تحصل على الشاهدة العليا ".

وها هو يبث أنين كل متعلم حرم نفسه من الرفاهية واثقلته الديون وانهكته صروف الزمن ولا زمته الويلات في سبيل تحصيل العلم ونيل أعلى الشهادات العلمية لخدمة بلده، انتهى به المطاف إلى وظيفة من الوظائف الدنيا إما بائع أو عامل، ولم يشفع له سهر الليالي وهو يدرس الكتاب وبعد أن تحصل على الشهادة وضعها تحت الوسادة ونام عليها حسرة وقهرا وكمدا . وكنه يوجه نداء إلى من بيده القرار لإنصاف هذه الثلة من الكوادر الوطنية والاستفادة منها والاعتناء بها. تعال معي لنتحسس أنين القاص السوري / أحمد الحسن في قصة " الورد والحريق " يقول : " حين كبرت عملت أيضا في الزبداني، كان هذا في ريعان الشباب قبل اكتشاف زيف الشعارات الكبرى التي كانت تملا حياتي – لا بد ان انفصل عن أهلي – وعملت ناطور بناء . . عملت في تعبئة الإسمنت ! يومها تشققت يداي وانهمر الدم، ولم يكن لصاحب العمل قلب يرأف بي، بل كان يتابع تناول إفطاره وكأن دما لم ينهمر! وحين أتذكر عملي هذا أبتسم، فوالدتي لم تعيرني به بل كانت تعيرني دوما بعملي في بيع البطيخ الأحمر - أو تخرجي من الجامعة - وكانت تردد دائما : الناس صارت شرطة وضباطا وعساكر ومخابرات وبيوت وسيارات ! وابني درس .. درس ورجع بياع بطيخ؟ يا خيبتك باينك يا .. يا حيف الحليب اللي رضعته؟ لو أرضعته لحمار كان صار بني آدم متعلم يدبر رأسه ".

ومع المجموعة الثالثة للقاص والأديب السوري الدكتور أحمد جاسم الحسين بعنوان " خبيصة " وتعني فوضى امتازت هذه المجموعة بالنقد الموسوق فالقاص السوري حينما ينتقد الأوضاع في هذه المجموعة كأنه يعزف لك لحنا دافئا حزينا لا يخلو من السخرية بين الفينة والأخرى.

يقول في قصة " خمسون سنة ولم يتغير شيء " وكأنه يحاكي الرتابة والبيروقراطية التي عششت في معظم المؤسسات والإدارات الحكومية " يستيقظ مبكرا.. يغسل وجهه.. يحلق ذقنه.. يتناول الفطور .. يبلس .. يخرج .. يصل عمله .. ينجز ما هو مطلوب منه .. يعود .. يتغدى... ينام .. يستيقظ .. يجلس على الشرفة .. يشرب الشاي .. يتأمل .. يتثاءب .. ينام يستيقظ في اليوم التالي يا ... ! " .

ويسخر الكاتب السوري / أحمد جاسم ، من محبي البطولات الوهمية وفرد العضلات في كل شيء، نرى ذلك في قصة " البارحة أو بعد غد " " لا تضحكي علي صحيح أن الضحك نافع للقلب .. ولكن وقتها لا تهتمي بأمر القلب .. لأنه سيكون قد انعطف تماما .. ! النية كانت أن أكتب قصة قصيرة جدا بأسلوب رسالة فيها بطل وبطلة – عذرا سنكون أبطالا ولو بالكلام – لا عليك .. لا تكترثي .. ألم أقرر منذ البداية الحديث عن شخصين لا أعرفهما .. القراء أذكياء .. وقبل أن تقودهم أذهانهم إلى تصور علاقة حبنا سأضللهم وأقول لهم إنني أتحث عن شهريار وابنة خالته شهرزاد .. يا ... " .

أما في قصة " يمه يا يمااااه " يتطرق الدكتور أحمد إلى آفة اجتماعية أخرى هدمت البيوت ودمرت الأسر ألا وهي " الإشاعة " يقول " حسنا .. أن تتركيني في المهد وتذهبي لتحلبي البقرة قبلتها منك.. ولكن أن تصديقهم أن ابنك عاقر لأنه بلغ الثلاثين، ولم يتزوج فهده لا أهضمها " .

وبطريقة العالم في النفس البشرية يصور لنا نرجسية هذه النفس ويكشف لنا " الأنا " ويرصد لنا المطبلين لهذا الشخصية تملقا ونفاقا أو ما يطلق عليهم بالمتصلحين أو المتنفعين يقول في قصة " لن يذكره الناس أبدا " " عن جدي عن جده قال سألت جدي : لماذا حرمت أعمام أبي من الميراث وورثته لجدي فقط ؟ قال: هم حرموا أنفسهم؟ جمعتهم ذات يوم وقلت لهم: معكم شهر كامل لتفكروا في أفضل الطرق لـ (تخليدي) ؟ ولما عادوا .. قال الأول : عود الناس أن يركعوا لك سبعا وعشرين مرة في اليوم ... ! والثاني قال : صنع تمثال لك في كل مكان من البلد أحسن طريقة لتخليدك... ! أما الثالث فقال : الأفضل أن ننشر صورك في كل مكان وتأمر من حولك بأن يكثروا من إقامة المهرجانات .. ! أما رابعهم (

جدك) فقال : عذرا يا أبي سأكون صريحا معك – وإن كانت الصراحة في حضرة مثلك عواقبها وخيمة – إن من يخلف أمثال هؤلاء لن .. يا ... ! " .

وختاما ننهي هذه المجموعة بقصة " ومن الحب " حيث يقول " طبعوا لي صورا كثيرة .. علقوها في مدخل البناء والبيت ، كتبوا أسفلها ستبقى أبانا إلى الأبد! بالروح بالدم نفديك يا بابا ! سامح الله أولادي المشاغبين على هذا الحب الذي كدت أدفع ثمنه غاليا .. " ، وكأنه أراد أن يقول إن ما قام به البناء تجاه والدهم تعبيرا عن حبهم له هو من الممنوعات لدى بعض الأنظمة العربية لأنها مقصورة فقط على الحاكم فهو الوحيد الذي يفترض أن يحظى بهذا التقديس .

الهوامـــش والمراجـــع

-كتاب " جماليات الثقافة والفنون في الكويت – الواقع والطموح "،مركز المعلومات والأبحاث بوكالة الأنباء الكويتية (كونا)،وكالة الأنباء الكويتية (كونا) 2008 .

- كتاب " السيميائيات السردية " تأليف الأستاذ الدكتور / رشيد بن مالك، الطبعة الأول (1427 هـ = 2006) دار مجدلاوي للنشر والتوزيع – الأردن .

-كتاب " قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص" (عربي – إنجليزي – فرنسي)، رشيد بن مالك.

-كتاب " النص وما وراء النص " فتحية الحداد، الطبعة الأولى، الكويت، نوفمبر 2007 ،الشركة العصرية للطباعة.

-مجلة " آمال " مجلة إبداعية تعنى بأدب الشباب، تصدر عن وزارة الثقافة، الجزائر.

-مجلة الإذاعات العربية، مجلة فصلية، تصدر عن اتحاد إذاعات الدول العربية، تونس.

-مجلة " بحوث سيميائية " يصدرها مخبر عادات وأشكال التعبير الشعبي بالجزائر، جامعة أبي بكر بلقايد– تلمسان – ومركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية بالجزائر.

-مجلة " البيان " تصدر عن رابطة الأدباء الكويتيين، الكويت.

-مجلة " الحياة الثقافية " تصدر عن وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، تونس.

-مجلة " الحياة المسرحية " مجلة فصلية تصدر عن وزارة الثقافة، دمشق.

-حب فراتي (قصص قصيرة) للأديب السوري / أحمد جاسم الحسين.

-خبيصة (قصص قصيرة) للأديب السوري / أحمد جاسم الحسين.

-همهمات ذاكرة (قصص قصيرة جدا) للأديب السوري / أحمد جاسم الحسين.